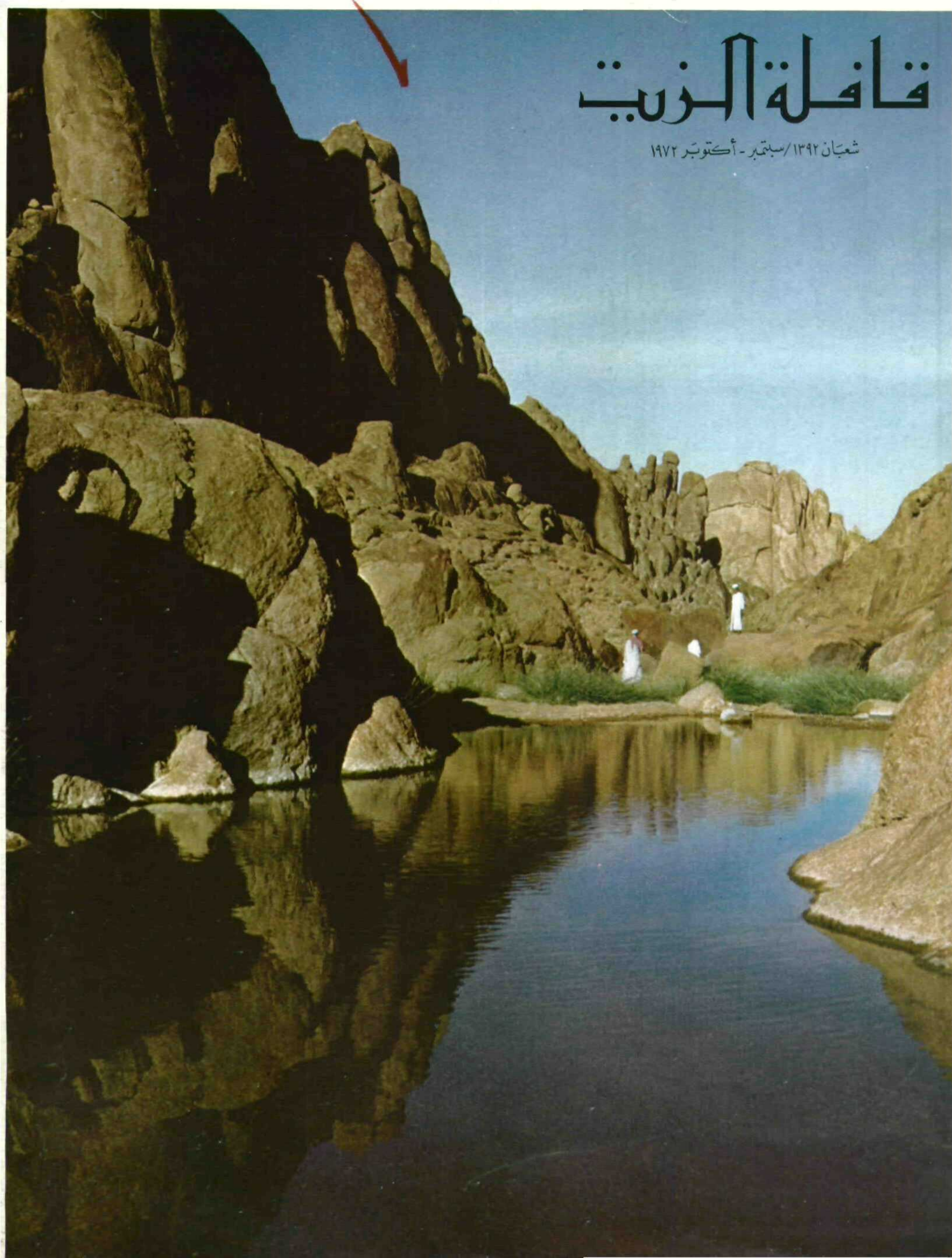
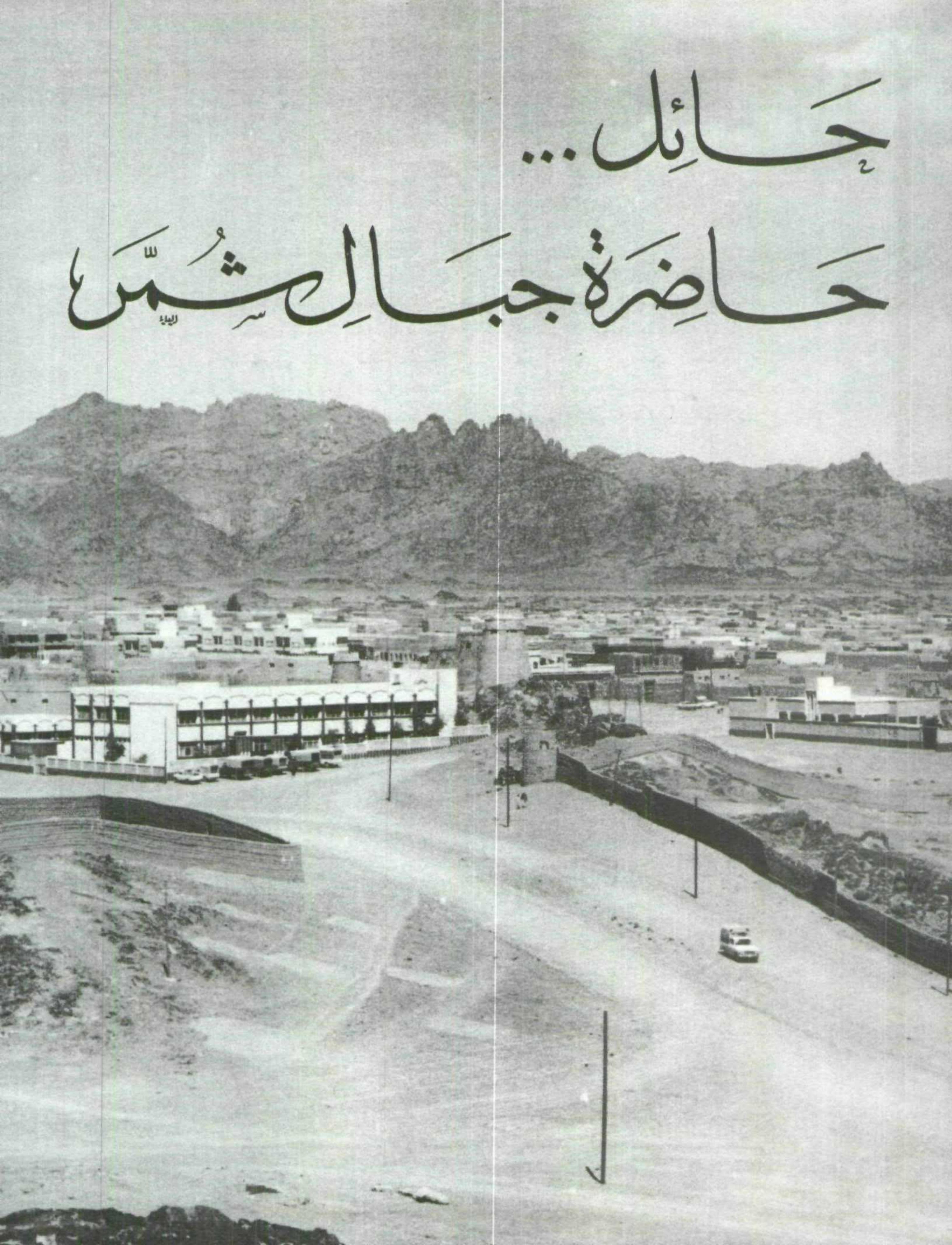
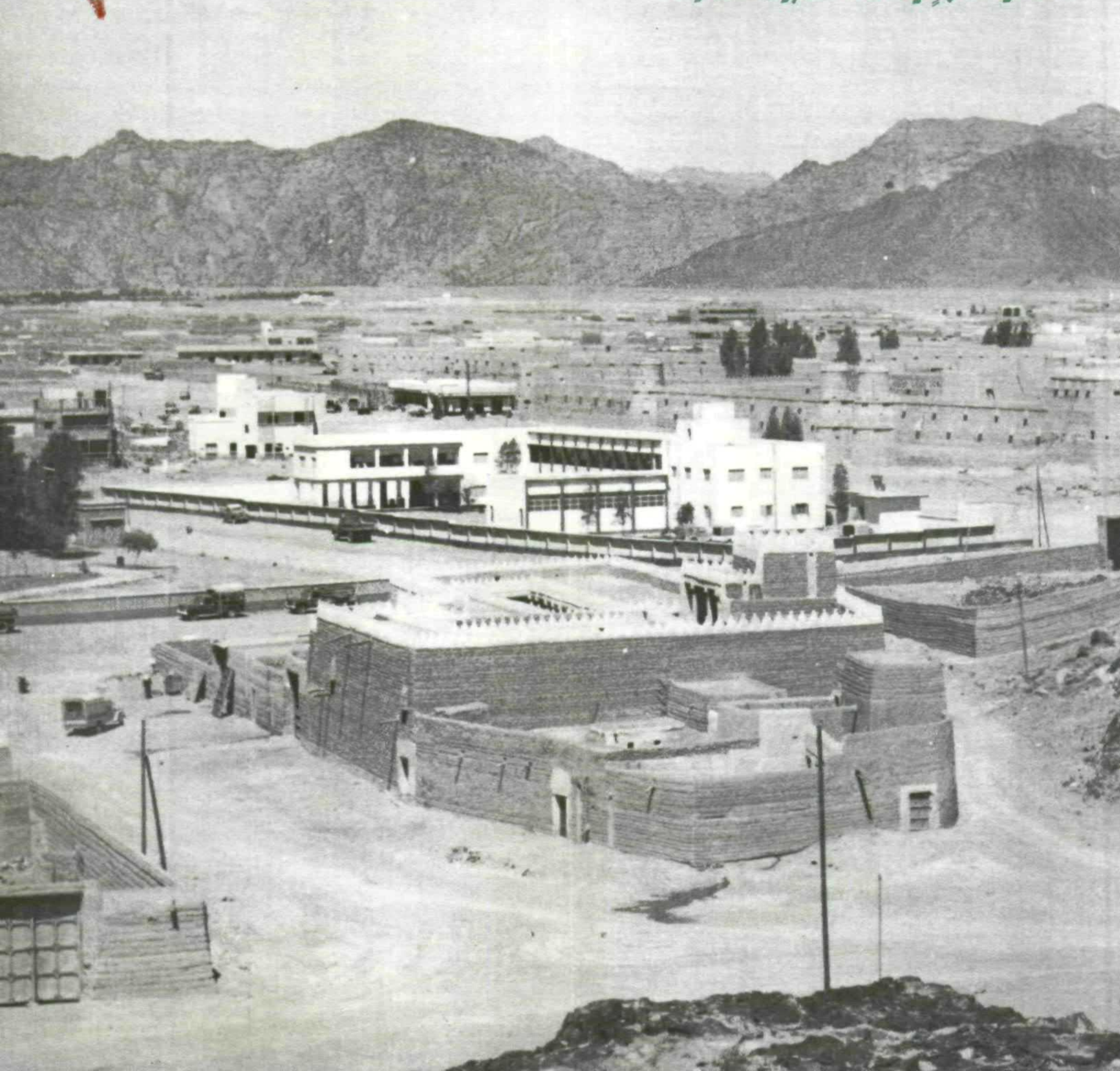


قافلة الزيت

شعبان ١٣٩٢/سبتمبر - أكتوبر ١٩٧٢


حائل...
حاضرة جبال شمّر

الأمجاد العريقة ، التاريخ الحافل المشرق ، المعالم الأثرية الجليلة ، حكايات الحب الأسطورية ، البطولات النادرة ، ينابيع الأدب الثرة ، السماح والجود ، الجمال الفتان ، الطبيعة الخلابة ، الأرض الخيرة ، الأنسام العليلة ، الجبال الوردية الداكنة ، الأودية الممرعة ، المروج الخضر ، السهول الفيحاء ، مضارب الخيام ومراتع الأنعام ، الماء القراح ينساب في الجداول ، أشجار النخيل كالغيد الحسان ، القطوف الدانية ، الوعول في القنن الشامخة ، الطيور المغردة على الأفنان ، النجوم المتلألئة في السماء الصافية الأديم ، كل ذلك تتحفك به منطقة حائل التي يطلق عليها الأهالي اسم «إمارة الجبل» والتي تؤلف الجزء الشمالي من نجد في المملكة العربية السعودية .



تعيش وأنت تجوس خلال هذه المنطقة الواسعة مع حـاتم الطائي ، مضرب المثل في الجود ، وعنتر بن شداد العبسي الفارس المغوار ، وامرىء القيس الملك الضليل ، ولبيد بن أبي ربيعة العامري من أصحاب المعلقات ، وبشر بن أبي خازم الأسدي الشاعر ، وأوس ابن حارثة بن لأم الطائي من سادات طيء ، وعبيد ابن الأبرص الأسدي الشاعر ، وعدي بن حاتم الطائي وسفانة بنت حاتم الطائي ، وخالد بن الوليد سيف الله المسلول ، وطليحة بن خويلد الأسدي ، وعكاشة بن محصن الأسدي ، وزبيدة زوج الخليفة العباسي هارون الرشيد ، والحجاج بن يوسف الثقفي ، وكثير غيرهم ، ممن أثروا كتب التاريخ والأدب بفعالهم ووقائعهم ، فأنى حللت تجد من يقول لك مثلا هنا اقتسم حاتم الطائي وعنترة بن شداد الابل التي غنماها اثر غزوة قاما بها معا ، وفي كنف هذا الضلع من الجبل وقعت معركة بين طليحة بن خويلد الأسدي وعكاشة بن محصن ، وفي هذا الريع(١) مر خالد بن الوليد ، وعلى هذه الصخرة ربط زيد ابن مهلهل الطائي فرسه ، وفي هذا الغار نزل الحجاج ابن يوسف الثقفي في طريقه الى مكة المكرمة ، وهنا في جبال « الطوال » ، شمال حائل على حافة النفود رمى « قادي بن فنيدل » من شيوخ شمر وعلا ضخما فهوى مجندلا ، وراح يقول :

يا غـار سيلنا صفاتك من الدم
يدرج مـن الصفيا لحد الجثامير
ومن كف « قـادي » للنشامى مقدم
طقه لجد الكوع مع حومـة الطير

ومنطقة حائل شاسعة جدا ، اذ تمتد شمالا حتى تشمل صحراء النفود ذات الرمال الورديـة ، وتمتد شرقا وجنوبا الى حرة خيبر ، وتصل الى القصيم من الجهة الجنوبية الغربية . ويمكن القول أن هذه المنطقة تقع على وجه التقريب بين خطي عرض ٢٦,٥ و ٢٩ شمالا و ٣٩,٥ و ٤٣ شرقا . وتمتاز بطبوغرافيتها الفريدة ، ففيها الجبال والأودية والحرار والصحاري والسهول والهضاب ، كلها قد اجتمعت في تناسق جميل لتضفي عليها طابعا مميزا . وليس من قبيل الصدف أن تعرف هذه الرقعة الخلابة اليوم باسم « امارة الجبل » . ذلك أن جبال طيء كانت ولا تزال ، مصدر الخير وينبوع الجمال ، نسج الخيال المجنح حولها أمتع القصص التي لا تزال جنبات الشعاب تردد أصداءها . وهذه الجبال تتألف من سلسلتين متوازيتين تعرف احداهما بأجأ والأخرى بسلمى . وتفصل بين السلسلتين سهول تمتد نحو ٧٠ كيلومترا تتخللها الجبال الصغيرة ، وأهمها من الجنوب الى الشمال ، قنا ، وقني ، والرمان ، وعبد السّبعان ، وركان ، وفتق ، والسمراء ، والعوجاء ، وجانّين ، والجلدية ، والقاعـد . وهناك جبال أخرى تقع الى الجنوب الغربي من سلسلة أجأ منها : حبران ، ومزدات ، والمسما ، وعرنان المتاخمة لحرة هتيم المتصلة من الغرب بحرة خيبر . وفي الناحية الجنوبية الشرقية من سلسلة سلمى تنتشر بعض الجبال أهمها : الغميز ، وأبو اللقاح ، والشرثة ، ووحشي ، وقطن .

وتجري في المنطقة أودية عديدة بين صغيرة وكبيرة أهمها وادي « الأديرع » الذي تقع عليه مدينة حائل مقر الامارة شاقا مجراه بمحاذاة الطرف الشرقي من أجأ ، ويتجه نحو الشمال الشرقي مارا بالبقعاء حيث تغيض مياهه في رمال النفود . وتغذي هذا الوادي السيول التي تنحدر من شعاب أجأ ، ومنها : عقدة ، ومنشار ، والمغوات ، والرصف ، والسلف ، والبار ، وكحلة ، والجفارة ، وبيض ، والشقران . والجدير بالذكر أن هذا الوادي كان يسمى قديما « الديعجان » لأنه كان دائم الجريان . وفي الطرف الغربي من سلمى يجري واد آخر لا يقل أهمية عن وادي « الأديرع » ، وهو وادي « العش » الذي ترفده السيول المنحدرة من شعاب سلمى ، وأهمها : شعيب الحار ، وذوخين ، والشري ، وأكبره ، وريع النعي ، وريع السعود ، ثم يتجه نحو الشمال الشرقي مجتازا العدوة الى أن ينتهي في النفود أيضا . أما حرة هتيم التي تقع الى الجنوب الغربي من حائل فتجري فيها الأودية اثر هطول الأمطار ، ومنها وادي المخارير ، ووادي المرير .

أجأ وسلمى عاشقان

حفلت كتب الأدب وقصائد فحول الشعراء بذكر هذين الجبلين المشهورين ، فكانا دائما وأبدا مصدر إلهام لكثير من الشعراء والفنانين القدامى والمحدثين ، مرد ذلك لما يتوفر فيهما من مميزات قل أن تجدها في جبال أخرى . اذ تروعك وأنت تقف أمام أجأ أو سلمى تلك التكوينات الصخرية البديعة الأشكال، المتعددة الألوان، فمن قرمزية ، الى رمادية ، الى كريستالية ، الى حمراء داكنة . وقد لعبت عوامل التعرية دورا كبيرا في نحت تلك الأشكال التي يعجز أمهر النحاتين عن الاتيان بمثلها . فهناك ترى أسدا رابضا ، وهناك امرأة ذات قد أهيف ، وفي قمة ذلك الجبل جمل مد عنقه ، الى غير ذلك من الأشكال التي تقف حيالها مشدوها . ولأول وهلة يظن المرء أن تلك الجبال خاوية لا حياة فيها ، وما أن يطوف في شعابها وريعانها حتى تبهره رياضها الغناء وبساتيها الوارفة وعيونها الجاريـة وقطعان المواشي السارحة في مروجها ، فهي عامرة بالقرى آهلة بالسكان .

وفي تسمية الجبلين ذكر الاخباريون العرب أن « أجأ » سمي باسم رجل ، وسمي « سلمى » باسم امرأة . وكان من خبرهما أن رجلا من العماليق يقال لـه أجأ بن عبد الحي عشق امرأة من قومه يقال لها سلمى ، وكانت لها حاضنة يقال لها العوجاء . وكانا يجتمعان في منزلها حتى نذر بهما زوج سلمى وأخوتها وهم : الغميم ، والمضل ، وفدك ، وفائد ، والحدثان . فخافت سلمى وهربت هي وأجأ والعوجاء ، وتبعهم زوجها وأخوتها فلحقوا سلمى على الجبل المسمى سلمى فقتلوها هناك ، فسمي الجبل باسمها . ولحقوا العوجاء على هضبة بين الجبلين فقتلوها هناك فسمي المكان بها ولحقوا أجأ بالجبل المسمى بأجأ فقتلوه فيه فسمي بـه . وأنفوا أن يرجعوا الى قومهم فسار كل واحد الى مكان ، فسمي ذلك المكان باسمه.

وفي جبلي أجأ وسلمى قال العيزار بن الأخفش الطائي :

ألا حي رسم الـدار أصبح باليـا ،
وحي ، وان شاب القذال ، الغوانيا
تحملن من « سلمى » فوجهن بالضحا
الى « أجأ » ، يقطعن بيدا مهاويـا

أما زيد بن مهلهل الطائي فيقول :

جلبنا الخيل مـن أجأ وسلمى
تخب نزائعـا خبب الركـاب
جلبنا كـل طرف أعوجـي
وسلهبـة كخافيـة الغـراب
نسوف للحـزام بمرفقيهـا
شنون الصلب صماء الكعـاب

وعرفت هذه الجبال قديما بجبال « طيء » نسبة الى قبيلة طيء التي يذكر الاخباريون أنها كانت باليمن . ورأس هذه القبيلة هو طيء(٢) واسمه جلهمة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عريب بن زيد ابن كهلان . ولما تفرق بنو سبأ عقب سيل العرم سار طيء نحو تهامة ، ثم وقع هناك بينه وبين عمومته ملاحاة فارقهم على اثرها وسار نحو الحجاز بأهله وماله وتتبع مواقع القطر ، فسمي طيئا لطيه المناهل . وكان لطيء بعير يشرد في كل سنة عن ابله ويغيب ثلاثة أشهر ، ثم يعود اليه وقد عبل وسمن وآثار الخضرة بادية في شدقيه . فقال لابنه عمرو ، تفقد يا بني هذا البعير ، فاذا شرد فاتبع أثره حتى تنظر الى أين ينتهي . فلما كانت أيام الربيع وشرد البعير تبعه على ناقة له ، فلم يزل يقفر أثره حتى سار الى تلك الجبال ، فأقام هناك ، ونظر عمرو الى بلاد واسعة كثيرة المياه والشجر والنخيل والريف ، فرجع الى أبيه وأخبره بذلك ، فسار طيء بابله وولده حتى نزل الجبلين ، فرآهما أرضا لها شأن . ويذكر الأخباريون أن طيئا شاهد شيخا كان مع ابنته يمتلكان جبلي أجأ وسلمى ، وقد ذكرا لطيء أنهما من بقايا صحار(٣) . فقال له طيء : هل لك في مشاركتي اياك في هذا المكان ، فأكون لك مؤنسا وخلا ؟ فقال الشيخ : ان لي في ذلك رأيا ، فأقم فان المكان واسع ، والشجر يانع ، والماء طاهر ، والكلا غامر ، فأقام معه طيء بابله وولده بالجبلين ، فلم يلبث الشيخ وابنته الا قليلا حتى هلكا وخلص المكان لطيء وولده . وقد أوجد الاخباريون هذه القصة تفسيرا لبعض المميزات اللغوية التي امتازت بها لهجة طيء من حيث أنها قريبة من لغة الشيخ الصّحاري .

ومع قلة ما يذكر عن تاريخ قبيلة طيء في الجاهلية الا أنها كانت ذات شأن كبير في تلك الأيام بدليل اطلاق اسمها ، عند بعض الكتاب الكلاسيكيين وعند الفرس والسريان ، على جميع العرب . فقصد بكلمة « طيايا – Tayaya » العرب عامة ، لا قبيلة طيء وحدها . ولا يمكن تفسير ذلك الا بأهمية الشأن الذي كان لها في الجاهلية، ولا سيما في المناطق التي كانت على اتصال مباشر بالفرس واليونان وبني أرم . وقد كان لبعض رجالها نفوذ كبير حتى أن الفرس اختارو أياس قبيصة(٤) ، وهو من طيء ، لتولي الحكم في الحيرة مرتين .

---

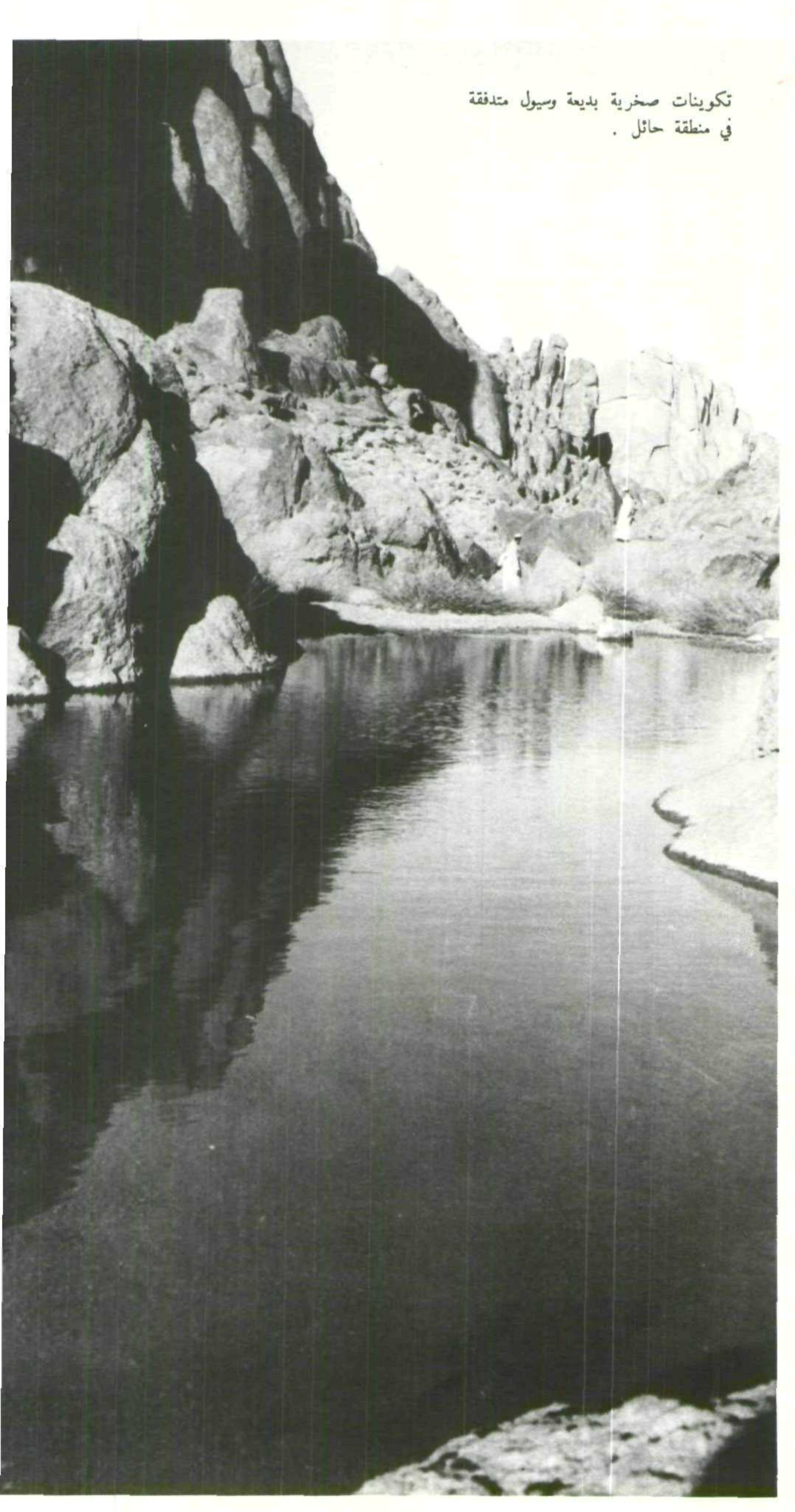
(١) الطريق في الجبل ، أو الجبل نفسه . (٢) معجم البلدان . (٣) قصة عمان مما يلي الجبل . (٤) تاريخ العرب قبل الاسلام لجواد علي

١ – يجري حاليا تمديد خط أنابيب قطره ١٢ بوصة لينقل مياه الشرب الى مدينة حائل من منطقة «الحميمة» التي تقع على بعد ٤٥ كيلومترا عن حائل .

٢ – قائمة الأفاوية والتوابل في أسواق حائل طويلة ، ومنها : « الفلفل الأحمر » و « الكركم » و « الليمون البصري » و « الهيل » و « الشنّة » .







تكوينات صخرية بديعة وسيول متدفقة في منطقة حائل .

وقد وجدت النصرانية الى هذه القبيلة سبيلا حتى أن بعض أفرادها بنوا الأديرة . كما كانت طيء تعبد صنما يدعي « الفُلْس » قريبا مــن « فيد » حطمه علي بن أبي طالب ، كرم الله وجهه بأمر من النبي ، صلى الله عليه وسلم . ويظهر من الروايات أن الحكام من طيء الواحد منهم يلقب بملك . فقد ذكروا أن عدي ابن حاتم الطائي كان رئيس طيء في أيام الرسول الكريم عليه السلام وكان ملكا عليها يأخذ منها « المرباع ».

وتفرعت من طيء بطون عديدة ، منها بنو شمر نسبة الى شمر بن عبد جذيمة بن ثعلبة بن سلامان ابن ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء . ومنهم قيس ابن شمر الذي ذكره امروٌ القيس، فقال في قصيدته التي مطلعها :

بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه
وأيقن أنـا لاحقان بقيصـرا

الى أن يقول :

فهل أنا ماش بين شوط وحية
وهل أنا لاق حي «قيس بن شمرا»

وشوط هو الآن شعب فيه نخيل يقع غربي أجأ تقطنه قبيلة الشلقان من شمر ، وتحف به قنن عالية توجد فيها الوعول . أما حية فهو واد قريب من شوط تقطنه قبيلة السويد من شمر ، ومن هنا أصبحت هذه الجبال تدعى جبال شمر .

حائل مقر إمارة المنطقة

عندمـــا قامت « الليدي آن بلنت – Lady Anne Blunt » حفيدة الشاعر الانجليزي الشهير « بيرون – Byron » بزيارة حائل في شتاء عام ١٨٧٩ (١٢٩٧هـ) قالت في كتابها « رحلة الى نجد – Pilgrimage to Najd » لن أنسى الانطباع الذي أخذني حين دخلت مدينة حائل من نظافـــة الجدران والشوارع الذي يكاد يعطي جوا خياليا » . وقالت الآنسة « جرترود بل – Gertrude Bell » في مذكراتها التي كتبتها عن رحلتها الى حائل عام ١٩١٣ : « أحمل في نفسي انطباعا عميقا عـــن جمال حائل الأخاذ » .

وزار حائل سنة ١٨٤٥م المستشرق الرحالة الفنلندي « جورج أوغست ڤالين » ، الذي اشتهر باسم الشيخ عبد الولي ، وهو أول أوروبي زار هذه المنطقة وأعجب بها أيما اعجاب . وقد سجل ما شاهده في كتاب صدرت ترجمته أخيرا تحت عنوان « صور من شمالي جزيرة العرب في منتصف القرن التاسع عشر » .

وتشير بعض المصادر التاريخية الى أن الاسم « حائل » كان يطلق على الوادي ، أما هي فكانت تعرف في الأصل باسم « القرية » التي يرى بعض المؤرخين أنها هي المشهورة اليوم باسم « عقدة » الواقعة على بعد ٧ كيلومترات غربي حائل . أما المؤرخ « سبرنجر – Springer » فيعتقد أن حائل هي المدينة التي ذكرها « بطليموس » باسم « آركوم – Arrekome » . وقد ورد اسم حائل على ألسنة كثير من الشعراء ، فهذا امروٌ القيس يؤكد ما ذهب اليه بعض المؤرخين ، فيقول :

التعليق الوارد لهذه الصورة غلط ويجب ان يكون كما يلي :
(قلعة عيرف ، على قمة جبل "عيرف" في الجهة الجنوبية من مدينة حايل)

فدع عنك نهبا صيح في حجراته
ولكن حديثا ما حديث الرواحل
أبت أجأ أن تسلم العام جارها
فمن شاء فلينهض لها من مقاتل
تبيت لبوني بالقرية آمنا
وأسرحها غبا بأكناف حائل
بنو ثعل جيرانها وحماتها
وتمنع من رماة سعد ونائل

وهذا بدوي حطت به النوى في العراق ، فلم يطق صبرا عن حائل الحبيبة فسجل اشتياقه اليها في أبيات قال فيها :

لعمري لنور الأقحوان بحائل
ونور الخزامى في ألاء وعرفج
أحب الينا ، يا حميد بن مالك
من الورد والخيري ودهن البنفسج
وأكل يرابيع وضب وأرنب
أحب الينا من سماني وتدرج
ونص القلاص الصهب تدمي أنوفها
يجبن بنا ما بين قو ومنعج
أحب الينا من سفين بدجلة
ودرب ، متى ما يظلم الليل يرتج

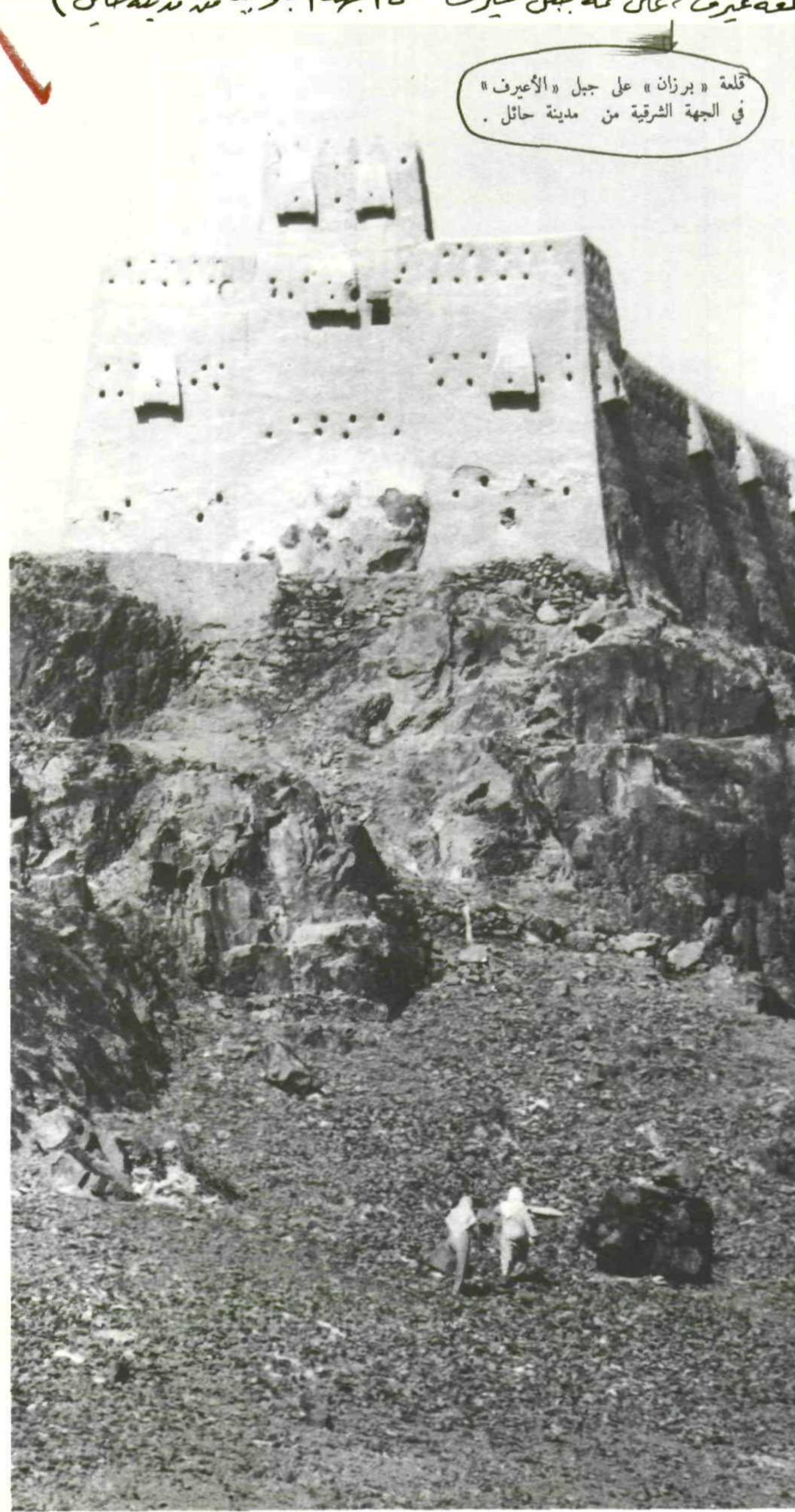
ومدينة حائل التي ترتفع عن مستوى سطح البحر حوالي ٣٥٠٠ قدم تقع في سهل منبسط على بعد ٤ كيلومترات من حافة جبل أجأ الشمالية الشرقية ، وتحيط بها هضاب قليلة الارتفاع من الجهة الشمالية ، والى الشرق من حائل يقوم جبل صغير يدعى « أعيرف » الذي تتربع فوقه « قلعة الزبارة » القديمة التي بنيت في أوائل القرن التاسع عشر ، ومن ورائه ينتصب جبل « سمراء حائل » ، وهو جبل شاهق تقوم على قمته أطلال حصن قديم منيع بني بالحجارة الغرانيتية والجص . ويشرف هذا الجبل الأشم على مدينة حائل ، وقرية الخريمي من الجهة الجنوبية ، وعلى ضاحية « السويفلة » القديمة من الجهة الشمالية . ومن أروع المشاهد التي يمكن أن يحظى بها الانسان وقوفه على أطلال ذلك الحصن قبيل جنوح الشمس الى المغيب مستقبلا النسائم الباردة ، ممتعا ناظريه بالسهول والهضاب والجبال والأودية ، مشاهدا كيف تودع ذكاء تلك الطبيعة الفتانة كل يوم ، فتلقي عليها وشاحا من تبر قبيل أن تختفي وراء قنن جبل أجا .

ويطلق أبناء حائل على قمة ذلك الجبل اسم « الموقدة » ويزعمون أن حاتما الطائي كان يأمر غلامه أن يوقد النار على تلك القمة ليهتدي بها المسافرون وتجلب له الضيوف ، فكان يقول :

أوقد فان الليل ليل قرّ
والريح يا موقد ريح صرّ
عل يرى نارك من يمرّ
ان جلبت ضيفا فأنت حرّ

وحائل اليوم تشهد حركة عمرانية عارمة ستزداد نشاطا . ولن يمضي طويل وقت حتى يفتتح الطريق المعبد الذي يربط حائل بالقصيم ، ومن ثم بالرياض ، والبالغ طوله ٢٨٠ كيلومترا .

وهناك طرق أخرى ممهدة تسير عليها سيارات النقل ، تربط حائل بالمناطق المجاورة ، منها



قلعة « برزان » على جبل « الأعيرف » في الجهة الشرقية من مدينة حائل .

الطريق الذي يخترق النفود متجها شمالا الى رفحاء على خط الأنابيب عبر البلاد العربية (التابلاين) وطوله ٤٥٠ كيلومترا ، وطريق آخر يتجه جنوبا الى المدينة المنورة ، وطريق ثالث يتجه شمالا شرقا الى الكويت . وقد ساعدت هذه الطرق على ازدهار الحركة التجارية في حائل قديما وحديثا . كما تربط الخطوط الجوية العربية السعودية بجاراتها برحلات منتظمة يومية من حائل واليها .

ان مما يسترعي انتباه الزائر لحائل قصر الأمارة الذي يقف شامخا عند مدخل المدينة مما يلي المطار والذي بناه سمو الأمير عبد العزيز بن مساعد بن جلوي أمير حائل السابق . وهذا القصر يعتبر تحفة فنية رائعة ، وقد شيد عام ١٣٥٧هـ بالطين واللبن ، وتقوم ردهاته على أعمدة من الحجر المصقول المكسو بالجص ، ويمتاز القصر بأبوابه الضخمة المزخرفة ، الزاهية الألوان ، المصنوعة من خشب الاثل . ويحيط بالقصر سور عال تقوم على أركانه « مرابيع » أي أبراج مستديرة ، وتزدان حواف الجدران من أعلى « بزرانيق » جميلة . ويمثل هذا القصر الطراز المعماري العريق المتبع في أبنية حائل خير تمثيل . وفي الجهة المقابلة لقصر الأمارة يقف قصر آخر لا يقل عنه روعة هو « القشلة » . وما أن يجتاز المرء هذين القصرين حتى يجد نفسه في وسط المدينة حيث تقوم المحلات التجارية المكتظة بالسلع والكماليات على اختلاف أنواعها . ومن شارع المطار الرئيسي يتفرع شارع الأمير خالد الذي يتجه غربا ، وقد أخذت ترتفع على جانبيه العمارات الحديثة الضخمة والمطاعم والمحلات التجارية . وعلى مقربة منه شيدت المباني الحكومية الحديثة ، ومنها الأمارة ، وادارات الجوازات والجنسية ، والبريد والبرق ، والشرطة ، وغيرها .

ويتفرع من شارع المطار شارع « الملك فيصل » الذي يتجه شرقا الى أن يفضي الى حي برزان القديم الذي يقوم فيه سوق « برزان » المشهور . وتشتد الحركة في هذه السوق في الصباح الباكر عندما تصلها السيارات المحملة بمحاصيل المنطقة الزراعية من الفواكه والخضار ومنتجات الألبان . وعلى مقربة من هذه السوق يرى الزائر « الجامع الكبير » الذي أسس عام ١٣٠٦هـ ، وهو أقدم مسجد في حائل ، ويقوم على ٢١٠ أعمدة من الحجر المكسو بالجص الناصع البياض . وقد بني تحت هذا الجامع قبو واسع يصلي فيه الناس أيام الشتاء القارس عندما تهبط درجة الحرارة الى ما دون الصفر . ومما يضفي على حي برزان طابعا مميزا وجود الحوانيت الصغيرة التي تباع فيها الحاجيات التي تشتهر بها حائل ، كطنافس الركوب ، والشداد المزخرف والمصنوع من خشب الاثل ، والحداجات ، والمحاحيل « البكرات » الخشبية التي تستعمل على الآبار « القلبان » . وفي « سوق الصناع » نرى الصاغة يهتمون بصنع الحلي التي تتجلى فيها الدقة والمهارة ، ومنها : الرشاش(٥) التي يتألف الواحد منها من دلعة(٦) أو أكثر ، والمرتعشات(٧) المنمنمة التي تصدر عنها وسوسة خافتة مع الحركة وتفضلها البدويات ، والذباحات(٨) ، واللماعات(٩) ، والبناجر(١٠) ، والمجاول(١١) ، والخزارى(١٢) ، والغويشات ، والحجول . أما في سوق « قصرية النهضة » فيشاهد المرء على الجانبين البزازين الذين يتفننون في عرض الأقمشة ذات الألوان الصارخة في الوجهات الأمامية من محلاتهم والتي تجتذب الكثيرات من نساء مدينة حائل والقرى المجاورة ، وخاصة صباح يوم الجمعة من كل أسبوع حيث تنشط حركة البيع والشراء .

ومواكبة للحركة العمرانية وازدياد عدد سكان المدينة قامت وزارة الزراعة في سنة ١٣٩١هـ بتنفيذ مشروع المياه الذي تبلغ تكاليفه نحو اثني عشر مليون ريال فحفرت ثلاث آبار ارتوازية في منطقة « الحمية » في الجهة الشمالية الشرقية من حائل على بعد ٤٢ كيلومترا ، وقامت بتمديد شبكة مياه جديدة وانشاء خزانات ووحدات ضخ لتوصيل المياه الى أحياء حائل . وقد كانت حائل تعتمد قديما على الآبار « القلبان » التي تحفر باليد الى عمق يتراوح بين ثلاثة أمتار وأربعة لتأمين مياه الري . ثم قام الأهالي بتمديد شبكة مياه من عين « سماح » المشهورة ، والتي تمتاز بمياهها المعدنية العذبة . ولما شعرت وزارة الزراعة أن الشبكة القديمة لم تعد تفي بمتطلبات مدينة متطورة كحائل ، قامت عام ١٣٧٩هـ بحفر بئرين ارتوازيتين في سماح وأوصلت مياههما الى خزان ضخم أنشأته على جبل « الشهيبة » غربي حائل . كما أنشأت شبكة جديدة للمياه . وأخيرا بادرت وزارة الزراعة ، وقد لمست حاجة حائل الماسة الى مزيد من المياه ، بتنفيذ مشروع مياه حائل الذي سينتهي العمل منه قريبا .

وتضم حائل أحياء عديدة ، منها : الربيعية ، والخنقة ، وواسط ، ومغيضة ، والجراد ، ولبدة ، والبزيعي ، والعليا ، وبرزان ، والحديدة ، والشعيب ، وسماح ، والزباره ، والعزيزيه . وأشهر ضواحيها : السويفله في الجهة الشمالية الشرقية ، والنقرة في الجهة الغربية ، وقد أصبحت الأخيرة تزهو ببساتينها ومزارعها الجميلة .

وتتطلع حائل الى انجاز مشاريعها الحيوية في المستقبل القريب ، والتي منها : انشاء مطار حديث يبعد عن المطار الحالي بنحو سبعة كيلومترات جنوبا ، وهو الآن قيد الدراسة والتصميم ، وانشاء مقر حديث للدفاع المدني بالمعدات الحديثة وانشاء مبنى نموذجي للمحكمة الكبرى على غرار مباني وزارة العدل ، وانشاء قصر أمارة المنطقة . وجدير بالذكر أن جهاز أمارة منطقة حائل الاداري يتألف من ٦٧٦ موظفا ومستخدما . كما تتجه النية الى انشاء محطة للبث التلفزيوني في حائل في المستقبل القريب.

ومن الناحية الادارية تحتضن حائل الأمارة المركزية ، ويتبعها امارات فرعية في سميراء ، وموقق ، والعظيم ، والحائط ، وجبه ، وطابه ، وقبه ، والبقعاء ، والسليمي ، والسبعان ، والشملي ، والحفير ، وتربه ، والحليفه ، والكهفه . ومن المتوقع قريبا افتتاح مراكز فرعية أخرى في قرى المنطقة التي يزيد عددها على ٤٠٠ قرية وهجرة .

ان نسبة كبيرة من سكان حائل يشتغلون بالتجارة ، وبعضهم يعمل في الصناعات اليدوية ، والبعض الآخر في الزراعة . كما نجد الكثيرين منهم قد انخرطوا في سلك التعليم وفي وظائف الدولة المختلفة . أما سكان القرى والبادية فيشتغلون بالزراعة وتربية الأغنام والماعز والابل . وينتمي سكان المنطقة الى عدة قبائل منها قبيلة شمر ، ولها ثلاثة فروع رئيسية هي : عبده ، والأسلم ، وسنجاره . وتقطن عبده في : الكهيفيه ، والعقله ، وضبيعه ، والخطه ، والودي ، والغار ، والصداعيه ، والمعيقلات ، والبنانه ، والقاعيه ، والقحصيه ، والشعلانيه ، وعريجاء ، والخوير ، والمعترضه ، والهويدي ، وسقف ، والقصه ، وحويان ، وعرفة البنات وصحا ، والرضفين ، وبدايع السليط ، وهجرة ابن رفاع . أما الأسلم فتقطن : جبل سلمى وقراه ، وأهمها فيد ، وطبه ، والصفراء ، والبير ، والنعي ، ورك ، والعدوة ، والساقيه ، والجحفه ، وريع تقريب ، والدهمشيه ، وغمره ، والعظيم ، والمكحول ، والشرثه ، والثعيلبي ، والصفوه ، والكهفه ، وابضه ، وسره ، والشبيكه ، وغضور ، والحامريه ، والعوشزية . أما سنجارة فتتبعها القرى والهجر الآتية : الهوه ، والشقيق ، والروض ، وحرمة ، وأبا الحيران ، والصنينه ، والغميراء ، والخبه ، والحطي ، والحفير ، وأم القلبان ، وقنا ، والرطاي ، والمشيطات ، وجبه ، والجبريه ، وقدر ، وتوارن ، وموقق .

وبالاضافة الى قبيلة شمر هناك قبيلة عنزة التي تقطن في قرى : الشعيبه ، والمبياح ، والعماير ، وشبرية الحمراء ، وشبرية الصفراء ، والبياض ، والوهيبيه ، والبلازيه ، والمصع ، والعصعص ، والرفيعه ، والوسيطه ، والشملي ، والحفيره ، وبيضا نثيل ، والفيضه . كما أن بعضا من قبيلة بني تميم قد استقروا في : قفار ، والمستجد ، والغزاله ، والمهاش ، والقصير ، والروضه ، والسبعان ، والجثاميه ، والنيصيه ، واللقيطه ، والسليمي ، وضرغط ، وسميره ، والخوه . هذا وتقطن قبيلة هتيم الحرة المعروفة باسم القبيلة ، وأهم قراها : الحايط ، ضريغط ، والفقي ، والشقه ، والنبوان ، وبعيجه ، والخفج ، والشويمس ، وروض ابن هادي ، والعوشزي ، والوسعة الغريسة ، والبدع ، والبركه ، والشعيله ، والفيضة ، والدوادمي ، والوسيطه ، وأم هشيم ، وسغيط ، والدابيه ، ومصده ، والحويط ، ومراغان ، والمعرش ، والهمجه ، وقنا ، وقني .

الحركة العلمية والفكرية والأدبية

يرجع تاريخ التعليم في حائل الى ما يقرب من قرن من الزمان عندما كانت نخبة من المشايخ من أهل العلم تقوم بتعليم أبناء حائل مبادىء القراءة والكتابة

---

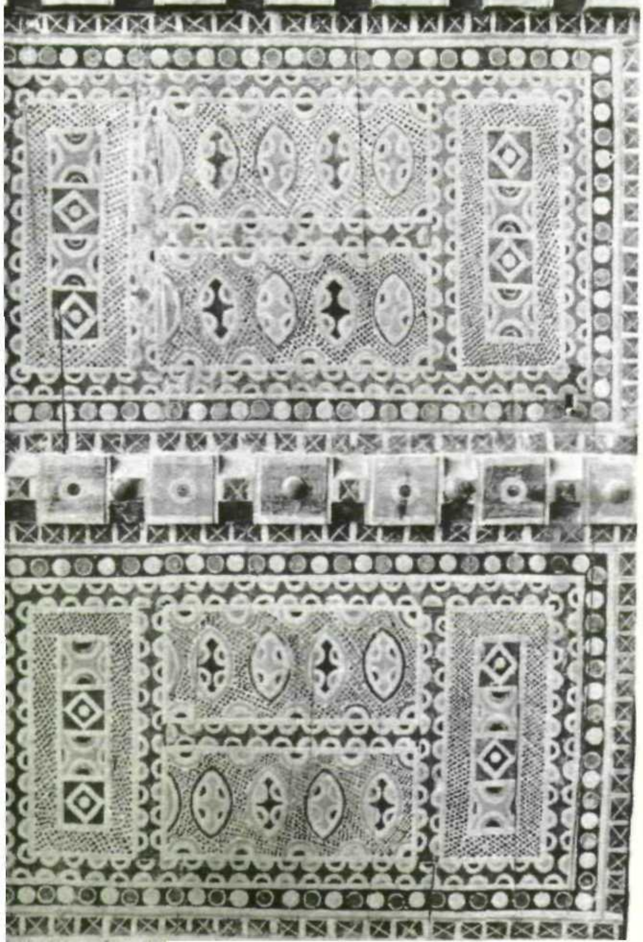
(٥) جمع رشرش وهو القلادة . (٦) صفة من الزخارف الذهبية . (٧) جمع مرتعشة وهي القلادة . (٨) قلائد على النحر . (٩) نوع من الأساور الرفيعة . (١٠) أساور عريضة . (١١) أساور من الطراز القديم محلاة بفصوص من الياقوت وغيره من الأحجار الكريمة . (١٢) الأقراط .



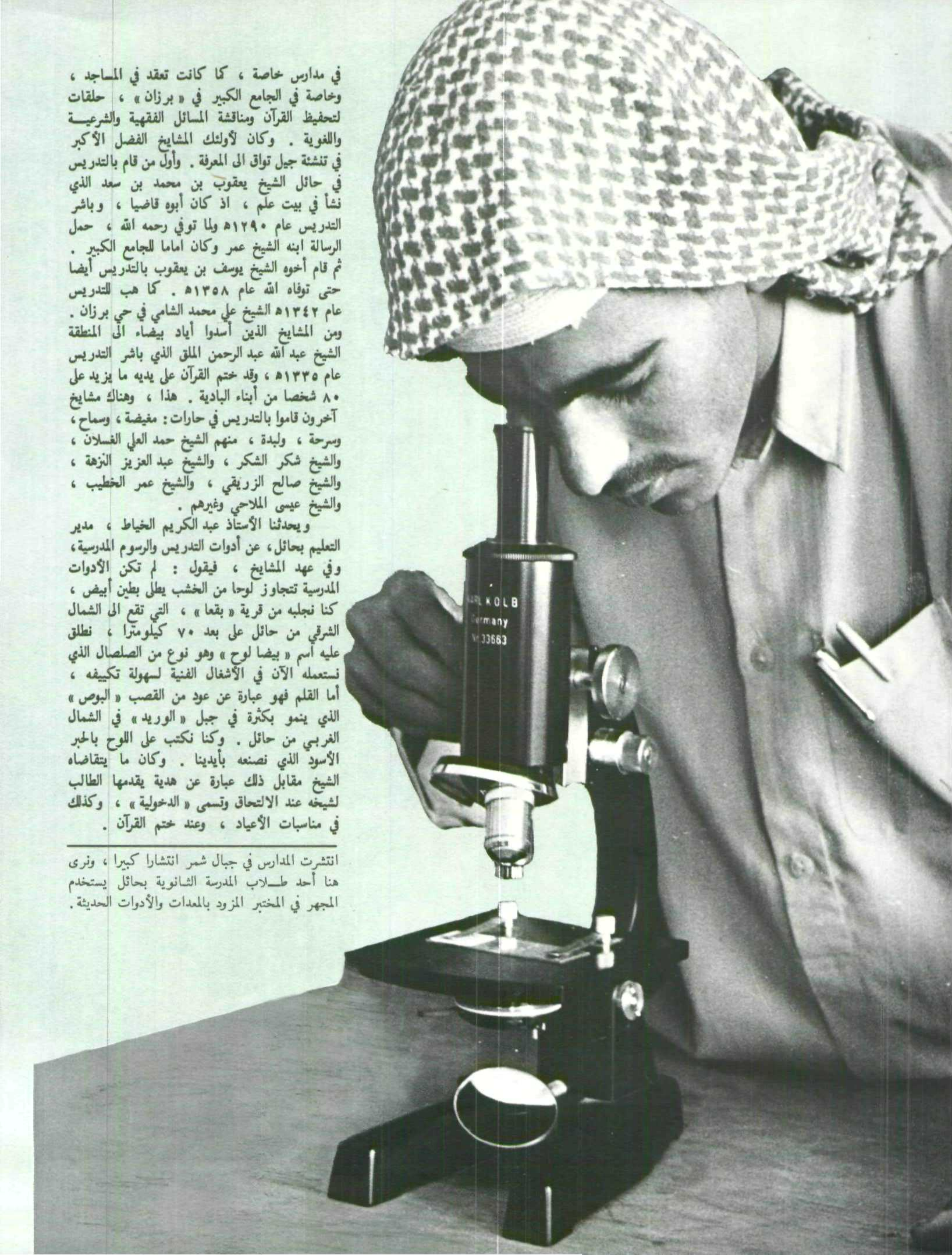
١ – وادي « توارن » الذي تحف به الجبال الشاهقة حيث أقام جواد العرب حاتم الطائي .

٢ – مشترٍ يتفحص « رشرشا » ذهبيا في أحد محلات الصاغة في سوق « قصرية النهضة » بحائل حيث تباع « الذباحات » « واللماعات » و« البناجر » و « الرشارش »و« المجاول » و« المرتعشات » .

٣ – تزدان أبواب مقصورات قصر الامارة القديم بدقة زخرفتها . ويعتبر القصر أحد معالم مدينة حائل البارزة .







في مدارس خاصة ، كما كانت تعقد في المساجد ، وخاصة في الجامع الكبير في « برزان » ، حلقات لتحفيظ القرآن ومناقشة المسائل الفقهية والشرعية واللغوية . وكان لأولئك المشايخ الفضل الأكبر في تنشئة جيل تواق الى المعرفة . وأول من قام بالتدريس في حائل الشيخ يعقوب بن محمد بن سعد الذي نشأ في بيت علم ، اذ كان أبوه قاضيا ، وباشر التدريس عام ١٢٩٠هـ ولما توفي رحمه الله ، حمل الرسالة ابنه الشيخ عمر وكان اماما للجامع الكبير . ثم قام أخوه الشيخ يوسف بن يعقوب بالتدريس أيضا حتى توفاه الله عام ١٣٥٨هـ . كما هب للتدريس عام ١٣٤٢هـ الشيخ علي محمد الشامي في حي برزان . ومن المشايخ الذين أسدوا أياد بيضاء الى المنطقة الشيخ عبد الله عبد الرحمن الملق الذي باشر التدريس عام ١٣٣٥هـ ، وقد ختم القرآن على يديه ما يزيد على ٨٠ شخصا من أبناء البادية . هذا ، وهناك مشايخ آخرون قاموا بالتدريس في حارات : مغيضة ، وسماح ، وسرحة ، ولبدة ، منهم الشيخ حمد العلي الغسلان ، والشيخ شكر الشكر ، والشيخ عبد العزيز النزهة ، والشيخ صالح الزريقي ، والشيخ عمر الخطيب ، والشيخ عيسى الملاحي وغيرهم .

ويحدثنا الأستاذ عبد الكريم الخياط ، مدير التعليم بحائل ، عن أدوات التدريس والرسوم المدرسية ، وفي عهد المشايخ ، فيقول : لم تكن الأدوات المدرسية تتجاوز لوحا من الخشب يطلى بطين أبيض ، كنا نجلبه من قرية « بقعا » ، التي تقع الى الشمال الشرقي من حائل على بعد ٧٠ كيلومترا ، نطلق عليه أسم « بيضا لوح » وهو نوع من الصلصال الذي نستعمله الآن في الأشغال الفنية لسهولة تكييفه ، أما القلم فهو عبارة عن عود من القصب « البوص » الذي ينمو بكثرة في جبل « الوريد » في الشمال الغربي من حائل . وكنا نكتب على اللوح بالحبر الأسود الذي نصنعه بأيدينا . وكان ما يتقاضاه الشيخ مقابل ذلك عبارة عن هدية يقدمها الطالب لشيخه عند الالتحاق وتسمى « الدخولية » ، وكذلك في مناسبات الأعياد ، وعند ختم القرآن .

انتشرت المدارس في جبال شمر انتشارا كبيرا ، ونرى هنا أحد طلاب المدرسة الثانوية بحائل يستخدم المجهر في المختبر المزود بالمعدات والأدوات الحديثة .

أما التعليم النظامي بمعناه الحديث فقد بدأ عام ١٣٥٦هـ عندما افتتحت المدرسة السعودية ، وهي أول مدرسة ابتدائية بحائل . ومن ثم أخذت الحكومة توالي افتتاح المدارس الابتدائية في حائل وقرى المنطقة حتى بلغ عددها ٧٢ مدرسة، تضم بين جدرانها ٦٧٦٥ طالبا . وفي عام ١٣٧٣هـ تأسس معهد للمعلمين يلتحق فيه الطالب بعد انهاء المرحلة الابتدائية ، وقد تخرج منه حتى تصفيته عام ١٣٨٧هـ ما يقرب من ٤٦٥ طالبا انخرطوا في سلك التدريس في المنطقة . ويرجع تاريخ تأسيس أول مدرسة متوسطة في حائل الى عام ١٣٧٥ ، ثم ما لبث أن أصبح في المنطقة خمس مدارس متوسطة ، يبلغ عدد الطلاب فيها حاليا ١٠٧٥ طالبا ، وفي عام ١٣٧٨هـ قامت وزارة المعارف بافتتاح مدرسة ثانوية ، وهي تضم الآن ١٦٤ طالبا . وفي العام الدراسي ١٣٩٠/١٣٩١هـ افتتح في حائل معهد ثانوي لاعداد المعلمين يقبل فيه الطالب الحاصل على شهادة الكفاءة ، ومدة الدراسة فيه ثلاث سنوات ، ويبلغ عدد طلابه ١٦٥ طالبا . وبالاضافة الى ذلك افتتحت وزارة المعارف للذين فاتهم ركب التعليم مدارس ليلية تتوفر فيها مراحل التعليم المختلفة ، وهي تضم نحوا من ٣٢٠ طالبا .

أما التعليم الديني في حائل فيوفره المعهد العلمي التابع للرئاسة العامة للكليات والمعاهد العلمية بالرياض . وقد افتتح هذا المعهد عام ١٣٨١هـ وبدأ بحوالي ١٥٠ طالبا ، ويقبل فيه الطالب بعد نيله الشهادة الابتدائية. ويتلقى الطالب مكافأة شهرية قدرها ٢١٠ ريالات تدفع لـه طوال مدة الدراسة في المعهد وتبلغ ست سنوات. ويضم المعهد بين جدرانه ٢٣٠ طالبا في سبعة فصول للعام الدراسي ١٣٩١/١٣٩٢هـ. ولدى المعهد مكتبة أنيقة فيها نحو ألفي كتاب في شتى المعارف والعلوم ، حسنة التنسيق والتبويب ، يرتادهـا الطلاب في أوقات الفراغ .

ويعود تعليم الفتاة في حائل الى عام ١٣٨١هـ عندما افتتحت الرئاسة العامة لتعليم البنات أول مدرسة ابتدائية في حي الجديدة ، ثم أتبعتها فيما بعد بثلاث مدارس ابتدائية في حائل، وخمس مدارس في كل من : الروضة، وفيد، وبقعا، والوسيطاء، والحائط، وقد بلغ عدد الطالبات في هذه المدارس الابتدائية حتى نهاية العام الدراسي ١٣٩١/١٣٩٢هـ حوالي ١٧٧٠ طالبة . وفي سنة ١٣٨٧هـ افتتحت الرئاسة العامة لتعليم البنات معهدا للمعلمات ، وهو يضم الآن ٨٣ طالبة ، كما افتتحت مدرسة متوسطة تضم الآن نحو ٤٠ طالبة . وقد شرع في العام المنصرم في انشاء مدرسة نموذجية ضخمة في مدينة حائل ستضم مراحل التعليم الابتدائي والمتوسط والثانوي . ومن المتوقع أن تنتهي أعمال الانشاء فيها قريبا لتباشر المدرسة رسالتها في العام الدراسي المقبل .

قفار ومركز التنمية الاجتماعية

في سهل منبسط يمتاز بتربة طينية صفراء ناعمة تنتشر بيوت قرية قفار الزراعية التي تقع الى الجنوب الغربي من مدينة حائل على بعد ١٧ كيلومترا . وعلى طول الطريق المؤدية اليها تمتد الحيران(١٣) المسورة بأشجار الاثل الضخمة . وقفار من القرى الجديرة بالمشاهدة ، سيما وأن الأطلال حولها توحي بعراقتها وقدمها . وحولها أنشئت البساتين الغنية بأشجار الحمضيات والعنب ، والخوخ ، والتفاح البلدي ، والنخيل . وقد اختيرت هذه القرية لتحتضن مركز التنمية الاجتماعية الذي أنشأته وزارة العمل والشؤون الاجتماعية عام ١٣٨٢هـ . وقد أسهم هذا المركز بقطاعاتـه الصحية والاجتماعية والزراعيـة والثقافيـة والتعاونية في خدمة المواطنين في جميع المجالات . لا في قفار فحسب، بل في قرى أخرى ، منها : الطويفحة ، والودي ، وقصر العشروات ، والمعيقلات والحميراء ، والنيصية ، واللقيطة ، والجثامية .

ومن معالم قفار الأثرية « قصر غياض » الذي يحيط به سور ضخم من الطين واللبن تداعت بعض أجزائه ، ويبلغ سمك جداره حوالي مترين ، وفي الركن الجنوبي الغربي من السور يقوم برج عال . ومن القصص التي يتناقلها أبناء قفار أن ابراهيم باشا أوفد الى قصر غياض اثنين من رجاله ليدخل القرية سلما ، فكان ان قبض أهل قفار على أحدهما ودفنوه في جدار القصر أثناء عملية بنائه على مرأى من صاحبه ، ففر هذا هاربا وأخبر الباشا بما رآه ، مما حمل ابراهيم باشا على مغادرة القرية . وعلى مقربة من قصر غياض من الجهة الشرقية برج ضخم ذو جدار مزدوج يطلق عليه أهالـي قفار اسم « قصر البنات » . وقد سمي كذلك لأنه بعد استسلام المدينة اثر هجمة أخرى لابراهيم باشا بقي من في هذا القصر يدافع حتى الرمق الأخير ، ولما دخله الغزاة وجدوا أن فيه بنات كن يدافعن دفاع الأبطال .

الى حيث يرقد حاتم الطائي

قيل لنا ونحن في حائل لا بد وانكم ترغبون في زيارة منازل جواد العرب حاتم طيء . فكان أن اتجهنا شمالا فمررنا بقرية « اللقيطة » ، ثم واصلنا رحلتنا شمالا غربا الى أن دخلنا في واد لا يزيد عرضه على مائتي متر تحف به الجبال الشاهقة ذات الصخور الوردية الملساء الى أن وصلنا «النقبين»، حيث ضاق الوادي وأطلت علينا من سفح الجبل الجنوبي نخيلات كأنها عرائس معلقة تغريك باللجوء اليها وتفيئ ظلالها. وترتوي هذه الأشجار من السيول التي تنحدر من أعلى الجبل . ويعتبر « النقبين » من أجمل الأمكنة التي يقصدها أبناء المنطقة لقضاء أمتع « القيلات » حيث يتفيأون ظلال النخيل نهارا ، ويفترشون ليلا أرض الوادي المغطاة بالحصباء الوردية الناعمة . وقد سميت هذه البقعة الجميلة بالنقبين لأن الوادي ينتهي بممرين ضيقين أحدهما قليل الارتفاع يسلكه الناس والماشية ، أما الآخر فصعب ارتقاؤه وتنحدر اليه السيول من واد آخر أعلى منه، وتتدفق على صفاة بيضاء فيها حفرة صخرية عمقها أربعة أمتار ذات جدران رخامية ملساء يميل لونها الى الخضرة، وقد صقلتها السيول . وهذا الموضع معروف منذ القدم ، فهذا أمرؤ القيس يقول :

خرجنا من « النقبين » لا حي مثلنا
بآياتنـا نـزجـي اللقـاح المطافـلا

وخلفنا النقبين وسرنا في سهول وأودية تكثر فيها أشجار الطلح المزهرة الفواحة ، تسرح بينها قطعان الماعز والضأن ، ثم اجتزنا « مقمز الفرس » ، وهو جبل صغير ، ومن هنا بدت لنا عن كثب رمال النفود الكبير ، التي كانت تعرف قديما « بعالج » . وعرجنا على « قلعة الأزور » الشبيهة بالقبين ، ثم اتجهنا نحو الجنوب الغربي حتى بلغنا « قاع حويم » الذي يزرع برا ترويه السيول . ودخلنا في وادي « توارن » الذي تقف على جانبيه جبال داكنة تتواجد على قممها الوعول (البدن) ، ووقفنا عند أطلال قصر في بطن الوادي أخبرنا الشيخ سعيد بن مبارك بن كبريت ، القاطن هناك ، أن هذا القصر يسمى قصر « الأصفر » جد شمر ، وقد أجلاه حاتم الطائي عن هذا الوادي ، فارتحل عنه ونزل في وادي « الديعجان » . وقصر الأصفر قائم في بطن وادي « توارن » ، ولا تزال بعض جدرانه قائمة . وهو قصر مربع يبلغ طول جداره نحو ٣٠ مترا وسمكه نحو متر ونصف المتر . والجدار مبني بطبقتين من الحجارة المقطوعة من الجبال المحيطة بالوادي من الداخل والخارج وحشي الفراغ فيما بينهما بالطين . وعلى بعد كيلومترين من قصر الأصفر تقوم منازل الشيخ دويلي بن بادي الذي أرانا أطلال قصر حاتم ، وهي عبارة عن رضم سود مصفوفة فوق بعضها البعض الى ارتفاع متر ونصف المتر . وعلى مقربة من أطلال القصر أرانا الشيخ دويلي قبر حاتم وقبر أمه عنبة بنت عفيف ، ويبلغ طول كل قبر منهما حوالي ستة أمتار . والمعروف عن حاتم أنه لم يدرك الاسلام ، ويروى أن ابنته « سفانة » كانت جارية في سبي طيء وأتي بها الى النبي ، صلى الله عليه وسلم ، فسألته أن يمن عليها ، وذكرت لـه جود أبيها ومكارمه في الجاهلية فأجاب النبي سؤالها وقال : « خلوا عنها ، فان أباها كان يحب مكارم الأخلاق، والله يحب مكارم الأخلاق » . وقد أسلمت سفانة وكذلك أسلم أخوها عدي بن حاتم وحسن اسلامهما .

غـار جـانين

الى الشمال الشرقي من مدينة حائل ، وعلى بعد ٥٠ كيلومترا تقريبا ، يقبع جبل صغير منعزل يتألف من صخور رملية هشة تحيط به القفار الواسعة المغطاة بشجيرات الأرطا ، والعلندي ، والعرفج ، والرمث ، والثمام ، ترعاها الابل والماعز والأغنام ، وتكثر بينها الأرانب البرية والحباري . وقد أممنا نحو ذلك الجبل سالكين طريقا يشق سهولا جلدة تغطيها رقائق سوداء من الحصى ، ومررنا في طريقنا ببئر « عكاش » وهي في الحقيقة واحدة من « قلبان » يحفرها البدو القاطنون هناك الى عمق ٢٠ قدما أو أكثر لسقيا مواشيهم ، وماء بعضها عذب وماء البعض الآخر « هماج »(١٤) .

وصلنا جبل « جانين » والشمس في كبد السماء ، ثم دلفنا الى الغار عبر ممر ضيق في الزاوية الشمالية الشرقية . ويمتد الغار نحو مائة متر ، ويبلغ علوه ٣٠ مترا تقريبا على شكل هرمي مستطيل . وكلما أوغلنا في الغار ازدادت ظلمته ، الا من كوى صغيرة ينبعث

(١٣) جمع حير ، ومعناه بستان . (١٤) مر تشوبه ملوحة .

منها ضوء خافت. ويعتبر هذا الغار احدى المعالم الأثرية العجيبة لغرابة تكوينه . وتزدان جدرانه برسوم كثيرة للوعول والجمال والخيول والكلاب السلوقية والأيدي والأقدام الآدمية والرسوم المختلفة والعلامات الغريبة . وبالاضافة الى تلك الرسوم هناك كتابات هي على الأرجح مزيج من خط المسند والكتابة الصفوية والثمودية وتحتاج الى دراسة لالقاء مزيد من الضوء على تاريخ هذه المنطقة .

وفي عودتنا الى حائل مررنا بجبل « الجليدية » الذي تكثر فيه الذئاب الكاسرة ، وفي كنفه ضلعان يستقي البدو من « قلات » في قممهما . ثم وقفنا على « غار عكاش » الذي يبعد نحو كيلومترين الى الشمال من بئر عكاش . والغار عبارة عن صخرة بيضاء ضخمة يميل لونها الى الحمرة والسواد نحتتها يد الطبيعة حتى أصبحت على شكل مظلة مفتوحة أو فطر مفلطح . وتكثر المخربشات على جدران هذا الغار ، وكلها كتابات حديثة يخطها من يقصد هذا المكان للترويح عن النفس . والملاحظ أن صخور هذه المنطقة ذات أشكال عجيبة بفعل عوامل التعرية ، وهي من الكثرة بمكان ويمكن اعتبارها مصدر ايحاء رحب لذوي الخيال الخصب ينسجون حولها القصص الممتعة . ففي جبل عرنان مثلا صخرة على شكل رجل ، وأخرى تقابلها على شكل امرأة يطلق عليهما الأهالي حمص وحماة .

هذا، وتكثر الكتابات والرسوم في أرجاء المنطقة. وقد حدثنا مدير التعليم الأستاذ ابراهيم عبد الكريم الخياط أن سفوح جبل « القاعد » تضم كتابات ثمودية تحتاج الى من يحللها ويتعرف على نصوصها .

جَوٌّ وبَلطَة ومَسْطَحْ

لا يسع المرء ، وهو يسمع أمرؤ القيس وغيره يرددون في أشعارهم أسماء أمكنة متعددة في جبال شمر وشعابها ، الا وتحدوه رغبة الى مشاهدتها ، فهذا أمرؤ القيس يقول :

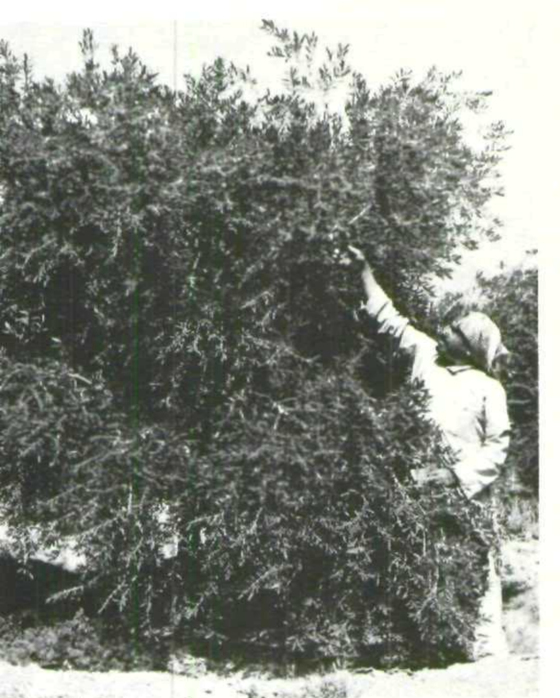
نزلت على عمرو بن درماء « بلطة »
فيا كرم ما جار ويا حسن ما فعل
تظل لبوني بين « جو » و « مسطح »
تراعي الفراخ الدارجات من الحجل

وهذه اعرابية من أهل جبل طيء قدمت الى مصر فمرضت بها ، فأتاها النساء يعرضن لها ويعللنها بالكعك والرمان وأنواع الفواكه ، فقالت :

لأهل « بلطة » اذ حلوا أجارعها
أشهى لنفسي من أبواب سودان
جاءوا بكعك ورمان ليشفيني
يا ويح نفسي من كعك ورمان

ويممنا شطر تلك الأمكنة في جبال أجأ ، وسلكنا وادي « صيحان » ، ثم انحرفنا الى اليمين باتجاه « بلطة » في ربع لا يزيد عرضه على ٥٠ مترا حتى انتهينا الى عين بلطة التي لا ينضب ماؤها طوال السنة ، وحولها شجيرات نخيل باسقة في حرف الجبل . ويقصد أهل حائل هذا المكان الذي يمتاز بجبال وردية جميلة، ذات تكوينات بديعة ، وأرض مفروشة بالبطحاء ظلالها وارفة وماؤها نمير .

ثم غادرنا المكان وعدنا أدراجنا الى وادي صيحان لنتجه صوب جوّ . واجتزنا «مسطح» التي ترتفع قليلا عن الوادي وتكثر على صخورها الكتابات والمخربشات الى جانب بعض المساكن الدارسة ، ثم أخذنا نرتفع شيئا فشيئا الى أن أفضت الطريق الى هضبة مستوية تحيط بها الجبال من جميع الجهات تكسوها النباتات الخضراء ، وترعاها قطعان الماعز والأغنام . اجتزنا هذه الهضبة حتى انتهينا الى جوّ التي تكثر فيها النخيل والتي ترويها مياه السيول فقط . وفي عودتنا أرانا الدليل غار « ظلما » الذي تنتشر حوله أشجار التين البري . ويزعم بعضهم أن « ظلما » هي امرأة ، وخلاصة قصتها ، كما رواها لنا دليلنا « سالم » ، أن رجلا تزوج من فتاة بارعة الجمال وأسكن معه أمه « ظلما » وأخته العانس . فكان كلما دلف الى خدر زوجته ، أكلت الغيرة قلب الأم وابنتها . وذات يوم صممت الأم على قتل ابنها عندما يذهب للقيلولة في ظل الغار فتدحرج عليه صخرة وهو نائم ، وحدثت ابنتها بذلك . وكانت الزوجة تسترق السمع ، فأخبرت زوجها بما تعتزمه أمه، فلم يصدقها . وذهب كعادته الى الغار



أشجار الزيتون أخذت تحتل مكانا بارزا في المنطقة الزراعية بحائل



يد هاون مصنوعة من حجر الجرانيت الأملس طولها نحو ٧٥ سنتيمترا ، يحتفظ بها أمير « فيد » ضمن مجموعة كبيرة من الحاجات الأثرية .

وقت الهاجرة ، وهاله أن رأى أمه كامنة وراء صخرة كبيرة في أعلى الغار تنتظر مجيئه ، فولت هاربة على وجهها في الجبال تتحين الفرص لتفتك بكل رجل يمر بذلك الغار .

وعلى مقربة من غار « ظلما »يوجد جسر حجري في حافة الجبل يطلقون عليه « مربط فرس أبو زيد ».

النعيّ روضة غنّاء

قطعنا السهول الفسيحة بين أجأ وسلمى التي تتخللها الهضاب والجبال البركانية نصعد تارة ونهبط أخرى . وفي هذه السهول تكثر الزواحف ، كالأفاعي والضب والورل ، واجتزنا « جبل فتق » و « جبل عبد السبعان » البركاني المخروطي الشكل . وما لبثنا أن أتينا الى ضلع « صغير الخلف » الذي تقاسم عنده حاتم وعنترة الابل . وبدت أمامنا عن كثب سلسلة جبال سلمى الشبيهة بأجأ من حيث تكوينها وفجاجها . فدخلنا في شعيب « رك » حتى وصلنا قرية « رك » القديمة التي ذكرها الشاعر عبيد بن الأبرص الأسدي بقوله :



نادي الجبلين » بحائل يحتفظ في متحفه الصغير بالعاديات التي يجمعها أعضاؤه ، ومنها السيوف والبنادق القديمة وغيرها .

عندما يشتد البرد في منطقة حائل تروج سوق الفراء المصنوعة من جلود الخراف التي تكثر في منطقة حائل ، ومنها النجدية والحبصية والجرشية ، وتمتاز كلها بأصوفها الناعمة .

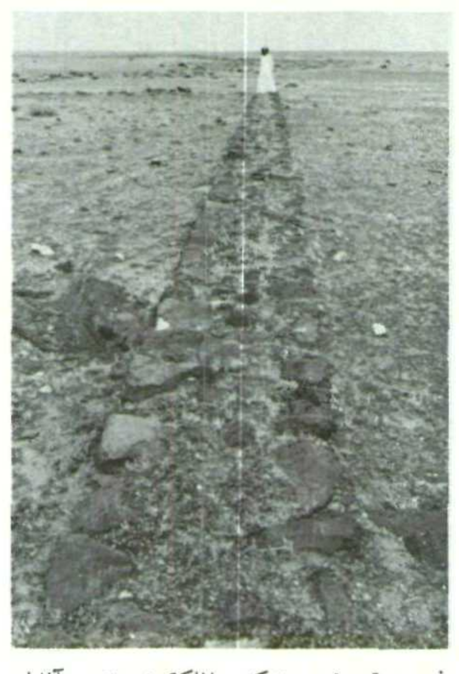
تغيرت الديار بذي الدفين
فأودية اللوى فرمال لين

تبين صاحبي أترى حمولا
تشبه سيرها عوم السفين

جعلن الفلج من « ركك » شمالا
ونكبن الطوي عن اليمين

وعلى بعد كيلين من « رك » في كنف جبل « صايد » نزلنا على قبر عكاشة بن محصن الأسدي الذي حارب طليحة بن خويلد الأسدي حين ادعى الأخير النبوة وارتد عن الاسلام . ولما استشهد عكاشة أرسل الخليفة أبو بكر الصديق، رضي الله عنه، خالد بن الوليد فهزم طليحة في «بزاخة»، التي تقع الى الجنوب من حائل على بعد ٥٠ كيلومترا . وفر طليحة الى الشام ، وقيل أنه قدم على الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسلما وأبلى بلاء حسنا في فتوح العراق . وحول قبر عكاشة توجد عدة قبور وآثار مسجد ومحراب لا تزال ظاهرة .

تركنا المكان وسرنا في « ريع النعي » حتى حططنا في قرية « النعي » التي تقع في أرض منخفضة تنحدر اليها السيول من جميع الجهات وتتجمع فيها ، ولهذا كانت ذات تربة خصبة غنية بخضارها وفواكهها كالعنب والمشمش والتفاح والاترنج والبرتقال . ويحفر الأهالي الآبار الى عمق ١٢ مترا ويركبون عليها مكائن لسقي « الحيران » . وتحيط بالقرية ذات البساتين



في مدينة « فيد » تركت الملكة زبيدة ، آثارا ، منها هذه القناة المطمورة التي كانت توصل الماء يوما ما الى بركة كبيرة يستقي منها الحجاج .

بدأت منذ عهد قريب زراعة القمح في منطقة حائل ، وانتشرت انتشارا كبيرا .

النضرة جروف جرانيتية كأنها جدران منحوتة . وقد أخبرنا أمير النعي « حمود بن زبن » أن قريته تضم قبر فارس بني عبس عنترة بن شداد الذي يعتبر من أشهر فرسان العرب ، ومن شعراء الطبقة الأولى . وقد قتله جبار بن عمرو الطائي ، سيد بني جديلة . فعلى مرتفع من الأرض أرونا قبر عنترة ، وعليه رضم سوداء .

وهنا رددنا أبياتا من معلقته حيث يقول :

هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم

يا دار عبلة بالجواء تكلمي
وعمي صباحا دار عبلة واسلمي

الى أن يقول :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك
ان كنت جاهلة بما لم تعلمي

يخبرك من شهد الوقيعة انني
أغشى الوغى وأعف عند المغنم

ومدجج كره الكماة نزاله
لا ممعن هربا ولا مستسلم

جادت له كفي بعاجل ضربة
بمثقف صدق الكعوب مقدم

فشككت بالرمح الأصم ثيابه
ليس الكريم على القنا بمحرم

فتركته جزر السباع ينشنه
يقضمن حسن بنانه والمعصم

«فيد» مهد حضارات زاهرة

تقع « فيد » على بعد ٢٠ كيلومترا من حافة جبال سلمى الشرقية في حرة منبسطة ، وتبعد عن حائل حوالي ١٣٠ كيلومترا . وقال الزجاجي أنها سميت اثر « فيد بن حام بن نوح » .

وقد ذكرها الشاعر الجاهلي لبيد بن ربيعة العامري في معلقته :

عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها

الى أن يقول :

بل ما تذكر من نوار وقد نأت
وتقطعت أسبابها ورمامها
مرية حلت « بفيد » وجاورت
أهل الجبال فأين منك مرامها

وكان لهذه المدينة شهرة عظيمة في العصور الوسطى، وخاصة في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد ، وقد أكسبها موقعها على درب زبيدة مكانة تجارية مرموقة وازدهارا عظيما . وكانت تعتبر أهم محطة على درب زبيدة لكونها في منتصف المسافة بين الكوفة ومكة المكرمة . وكان الحجاج يجدون في أسواقها العامرة كل ما يحتاجونه ، وكانوا يودعون أهلها بعض ما يثقلهم حتى يرجعوا . ومن معالم « فيد » الأثرية بركة كبيرة في وسط القرية تمتد منها قنوات تحت الأرض الى بئر في ظاهر القرية . وعلى بعد كيل واحد الى الشمال من قرية فيد الحالية تقوم مدينة فيد القديمة . وفي وسط أطلال المدينة قصر لا تزال بعض جدرانه قائمة ، وهو مبني بالحجارة السوداء ، ويبلغ سمك جداره ٥٦ بوصة . وأمام القصر من الجهة الشرقية بئر يبلغ عمقها ١٥ مترا تقريبا ، يطلق عليها أهالي فيد اسم « بئر الرومي » وحولها حديقة مسورة . وشاهدنا عند القصر حجر رحى قطره ٤٥ بوصة . والجدير بالذكر أن معالم هذه المدينة المندثرة لا تزال واضحة . وهي تحتاج الى حفريات للكشف عن كنوزها وإلقاء الضوء على تاريخها . وعلى أرضها تنتشر القطع الفخارية الملونة والمكسو بعضها من الداخل بطبقة زجاجية . وبعض القطع الفخارية ذات زخارف اسلامية رقيقة تنم عن مهارة فائقة . ويقوم أمير « فيد » الشاب المثقف « فهيد بن فريحان الشمري » بالمحافظة على جميع المعالم الأثرية بهذه البلدة ، وقد أخبرنا أن بعض أهالي فيد عثر على مسكوكات فضية وذهبية يعود تاريخ بعضها الى ١٧٣هـ . وفي الجهة الشمالية الشرقية من أطلال فيد القديمة ، وعلى أرض مرتفعة يقوم قصر « خراش » ، وهو عبارة عن رجوم سوداء، ويحيط به سور دائري . ولست أدري اذا كان صاحب هذا القصر هو المقصود في هذا البيت من الشعر :

تكاثرت الظباء على خراش
فما يدري خراش ما يصيد

وعلى مقربة من القصر شاهدنا بركة زبيدة التي كان



غار « جانين » الذي يزخر بالكتابات النبطية والثمودية والصفوية والرسومات الدقيقة .

يرقد فارس بني عبس « عنترة بن شداد » – على حد زعم أهل قرية « النعي » – في كنف هذه الجروف العميقة التي ابدعتها يد الطبيعة .

الحجاج يستقون منها ، وقد طمرتها الرياح بالرمال . ويبلغ طولها ٣٥ مترا وعمقها متران ، وهي مبنية بحجارة سوداء مطلية من الداخل بطبقة من الجص ، ويصلها الماء عبر قناة تحت الأرض من عين الحمراء في الجهة الجنوبية من القرية . والغريب أن الماء يرتفع في القناة الداخلية تدريجيا حتى يبلغ قناة ممتدة على سطح الأرض الى البركة طولها كيل تقريبا . وفي قرية فيد عدد من العيون القديمة المشهورة ، منها : عين النخلة ، والعين الحارة ، والعين الباردة .

والى فيد ينسب « زيد الخير » وهو زيد بن مهلهل ، من سادات طيء ، وكان فارسا شجاعا بعيد الصيت في الجاهلية ، وأدرك الاسلام ، وكان قد وفد الى النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع للهجرة فسر ، به وسماه « زيد الخير » . وروي عن النبي قوله : « يا زيد ما وصف لي رجل قط فرأيته الا كان دون ما وصف به الا أنت فانك فوق ما قيل فيك » . أما عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد قال له مخاطبا : لله درك يا أبا مكنف ، فلو لم يكن لطيء غيرك وغير عدي بن حاتم لقهرت بكما العرب . وقد حم زيد في عودته ، ولما اشتدت به الحمى عند ماء لحي من طيء يقال له فردة أنشأ يقول :

أمرتحل صحبي المشارق غدوة
وأترك في بيت بفردة منجد
سقى الله ما بين القفيل فطابة
فما دون أرمام فما فوق منشد
هنالك لو أني مرضت لعادني
عوائد من لم يشف منهن مجهد
فليت اللواتي عدنني لم يعدنني
وليت اللواتي غبن عني عودي

يصطلون بالنار في حزيران

قد يستغرب البعض عندما يسمع أن أهالي قرية « طابة » يوقدون النار ليلا لتبعث في أجسامهم الدفء ، ويتدثرون بالفراء ويلبسون البشوت اتقاء من البرد القارس في ليالي شهر «حزيران» ، ولكنها الحقيقة ، اذ تهبط درجة الحرارة هبوطا شديدا ، فقد يجمد الماء في بعض ليالي حزيران . ولدى اجتماعنا بأمير طابة الشيخ عبد الله المزعل حدثنا بأن شتاء المنطقة بارد جدا . وقرية طابة تقع في مدخل « ريع السعود » في وهدة تحيط بها الجبيلان (الجروف) من الشمال والغرب . وعلى مقربة من القرية في الجهة الجنوبية يرتفع جبل غرانيتي يطلقون عليه اسم جبل « الدنان » . والغريب في هذا الجبل أن أصواتا أشبه بالرنين المتواصل تصدر عنه عند الهاجرة .

عنب السبعان

تشتهر «السبعان» بعنبها الأسود والأبيض الشهي الذي يتأخر نضجه لبرودة الطقس .

والسبعان ، تلك القرية الغنية بمياهها العذبة وبساتين العنب والرمان ، تقع في وادي العش الذي تغذيه السهول المنحدرة من حافة جبال « سلمى » الغربية . وهي تمتاز بتربة طينية حمراء ناعمة تصلح لجميع أشجار الفاكهة. ومما يلفت النظر فيها أشجار النخيل من نوع «الحلوة» الضاربة في عنان السماء ، حتى ليبلغ طول النخلة ما يزيد على عشرين مترا ، تطوق أعناقها القنوان ، وقد وصفها الشاعر بقوله :

والنخل كالغيد الحسان تزينت
ولبسن من أثمارهن قلائدا

وقرية السبعان فضلا عن خصب أراضيها وشهرة عنبها تضم قصورا جديرة بالمشاهدة . وهذه القرية معروفة منذ القدم ، فقد ذكرها الشاعر لبيد في قوله :

غشيت ديار الحي « بالسبعان »
كما البدر فالعينان تبتدران
منازل من بيض الخدود كأنها
نعاج الملا من معصر وعوان

التوسع الزراعي في المنطقة

تتوفر عدة عوامل في منطقة جبال شمر من شأنها رفع المستوى الزراعي في المنطقة ، منها اعتدال مناخها وجودة تربتها ووفرة مياهها . فالحرارة في النهار تتراوح بين ١٥ و ٢٥ درجة مئوية صيفا ، وبين خمس درجات تحت الصفر و ١٥ درجة مئوية شتاء . والهواء جاف ، وتهب على المنطقة رياح غربية رطبة . أما التربة الصالحة للزراعة فهي بين صفراء متوسطة وصفراء خفيفة . وقد أثبتت الدراسات التي أجرتها الوحدة الزراعية في حائل ملاءمة هذه التربة لأشجار الفاكهة ، كالبرتقال والعنب والرمان والزيتون والخوخ والتفاح ، كما تصلح لزراعة الخضروات بجميع أنواعها . وتهطل الأمطار على المنطقة بين شهري سبتمبر ومايو .

وفي سلسلة التجارب التي أجرتها الوحدة الزراعية قامت عام ١٣٨١هـ بانشاء مزرعة نموذجية في « النقرة » على بعد ٥ كيلومترات جنوبي حائل مساحتها ٦ كيلومترات مربعة ، وغرست فيها أشجار الزيتون والفاكهة . كما خصص قسم منها للأشجار الحرجية ومشاتل أشجار الفاكهة التي تقدمها الوحدة للفلاحين . والجدير بالذكر أن الزيتون ناجح في هذه المنطقة نجاحا كبيرا . ولدى سؤالنا مدير الوحدة الزراعية السيد محمد الراجحي عما يفعلونه بثمر الزيتون الوفير ، قال : يصنع أهالي حائل الكبيس من ثمر الزيتون ، ويصدر الفائض الى الرياض ، وأعتقد أن لا مندوحة لنا من انشاء معاصر حديثة لاستخراج زيت الزيتون لوفرة الثمر .

وتعنى الوحدة بصورة خاصة بتنمية الثروة الحيوانية ، فقد قامت مؤخرا باحداث قسم في الوحدة ، يختص بالمراعي ويقوم بدراسة الأعشاب البرية فيها . وجدير بالذكر أن منطقة جبال شمر غنية بمراعيها وكثرة مواشيها ، فهي تزود المملكة بالأغنام والماعز والابل .

وتشتهر بصورة خاصة بأشجارها وأعشابها البرية التي ترعاها المواشي والابل . ففي النفود تنمو أشجار الارطا ، والغضا ، والعاذر ، والسبط ، والنصي ، والعرفج ، الى جانب بعض الأعشاب كالربلة ، والسليح ، والخمخم ، والحمصيص والمكر . أما في الشعاب والأودية والسهول فتكثر أشجار الطلح ، والسدر ، والعوشز ، والرمث ، والعلندى . كما تنمو في الربيع أعشاب كثيرة لبعضها أزهار جميلة الألوان منها : الأقحوان ، والحوذان ، والسكب ، والرقم ، والصمعة ، والخوة ، والشعلوق ، والذقنون ، والصفار ، والرخام ، والجعد ، والسلا ، والنقد ، والنقيع ، والثمام ، والدعاع ، والرال ، والشيح ، والبعيثران ، والخطمي ، والقيصوم .

وقد قامت وزارة الزراعة ، حفاظا منها على الثروة الحيوانية وانعاشها ، بحفر آبار ارتوازية في النفود ، وفي مناطق متعددة يقصدها البدو ، من تربة والشعلانية والخطة والأجفر والحليفة وبقعا . وسيجري قريبا توزيع الأراضي البور على المواطنين في وادي الترمس وبقعا والقصيفة والوبريات والفويلج والمندسة وصبروات والغزالة وبحرة جانين ، وتبلغ مساحتها ما يقرب من ٢٤ مليون دونم .

تشتهر المنطقة بزراعة النخيل في شعاب جبلي أجأ وسلمى وفي السهول . ومن أجود تمور المنطقة « الحلوة » التي يتأخر نضجها . ومن الأنواع الأخرى المشهورة في المنطقة : الرخيمي والحديرية والحمراء والقسبة . والمشهور عن حائل أنها تستورد التمور من القصيم والأحساء والمدينة المنورة مع بداية الصيف وتعود لتغمر تلك المناطق « بحلوتها » مع اطلالة الشتاء.

النشاط الرياضي والفني والاجتماعي

يمثل « نادي الجبلين » و « نادي الطائي » قمة النشاط الرياضي في حائل ، ليس ذلك فحسب ، بل يسهم كل منهما في شتى المجالات التي تهدف الى النهوض بمستوى مدينة حائل وسكانها . وقد تأسس « نادي الجبلين » عام ١٣٧٩هـ وتم تسجيله



تزخر المجالس في كل بيت في منطقة حائل بأنواع من « الدلال » و « الأباريق » الأنيقة ، التي تشكل مظهرا من مظاهر الضيافة .

ضمن أندية « رعاية الشباب » عام ١٣٨٦هـ . أما « نادي الطائي » فقد تأسس عام ١٣٨٠هـ وهو نادٍ رياضي ، ثقافي ، اجتماعي . وجدير بالذكر أن « نادي الجبلين » نال شهادة تقديرية كأحسن ناد رياضي من بين جميع الأندية الريفية في المملكة ، كما حاز عام ١٣٨٩/١٣٩٠هـ على بطولة المنطقة الوسطى في كرة القدم . وفي عام ١٣٩١/١٣٩٢هـ فاز بكأس وزارة العمل والشؤون الاجتماعية للدرجة الثانية . أما « نادي الطائي » فقد فاز بالمركز الثاني لبطولة المنطقة الوسطى في ألعاب القوى .

ويتبنى الناديان في شهر رمضان من كل عام مشروعا يسمى « يوم الفقير » تجمع فيه التبرعات من أعضاء الناديين والأهالي ثم توزع على الفقراء . كما يشترك الناديان في « أسبوع المرور » الذي تنظمه شرطة المرور . ويحرص « نادي الجبلين » على أن يكون هناك تعاون بين النادي وجميع المدارس في حائل فيما يتعلق بمتابعة الطلبة المنتسبين للنادي . وفي العطلة الصيفية يقوم النادي بفتح فصول دراسية خاصة لمن لم يسعفهم الحظ في النجاح في الدور الأول . ويوجد في النادي مكتبة تضم ما يربو على ألفي مجلد في مختلف المعارف يطبق فيها نظام الاعارة الداخلية والخارجية . ويسهم الناديان بعقد ندوات أدبية ومحاضرات ثقافية واقامة حفلات في مناسبات مختلفة .

ولعل أبرز ما يلفت النظر في مبنى « نادي الجبلين » تلك اللوحات الزيتية المستوحاة من صميم البيئة وطبيعة جبال حائل الفاتنة . وقد فازت بعض تلك اللوحات في المعارض الفنية التي تنظمها ادارة رعاية الشباب كل سنة لأندية المملكة . وتجدر الاشارة الى أن « نادي الجبلين » قد خصص غرفة في مبناه أشبه بمتحف صغير تعرض فيها « العاديات » وما يعثر عليه أعضاء النادي من حاجات أثرية أثناء جولاتهم الاستطلاعية في المنطقة .

ولأبناء جبال شمر عادات وتقاليد موروثة تحمل في طياتها الاصالة والشهامة والكرم . ومع تلك التقاليد المرعية يميل الشمري الى المرح والانطلاق ، فالطبيعة سمحة والأرض معطاء . ومن عادات أهل الحي الواحد في حائل أن « الشبة » ، وتعني القهوة العربية ، ترسو في منزل واحد منهم كل ليلة بالتناوب ، حيث يتخلل ارتشافها تبادل الأحاديث والأسمار ومطارحة الأشعار . وفي أيام العطل والأعياد يخرج معظم أهالي حائل جماعات الى « القيلات » في بقاع جميلة ، وخاصة أيام الربيع عندما تكتسي الأرض بالحلل السندسية الموشاة بالأبيض والأصفر والأحمر من النوار . ولعل قرية « عقدة » تحظى بعدد هائل ممن يرتادونها للترويح عن النفس . فهي تقع في شعيب في جبل أجأ يبلغ طوله ٥ كيلومترات وعرضه حوالي مائتي متر ، وقد حفت بها الجبال السامقة بتكويناتها الصخرية البديعة ، وتكثر فيها البساتين الغناء والمياه العذبة المتدفقة وأشجار النخيل التي تعانق الجبال الشماء .

ولا تخلو مجالس أبناء حائل من حفلات السمر يحيونها على ضوء القمر الساطع ، فيصدح شاعرهم بالإنشاد :

يا كليب شب النـار يا كليب شبه
عليـك شبـه والحطب لك يجـاب
وعلي أنـا يا كليب هيله وحبـه
وعليك تقليط الـدلال الـعـذاب
وادغث لها يا كليب من سمره جبّه
باغ الى منه غفا كـل هـاب
بـاغ الى شبيتهـا بـالمشبه
تجذب لنـا ربع سرات غيـاب
أطمر لهـم وابـدي سلام المحبـه
لا جو على هجن يفيهـم خـراب
مع كبش مصلاح لك الله نجبـه
الى أدبـر الهيّن متين العـلاب
والوالمـة يـا كليب عجل بصبـه
والرزق عند اللي ينشي السحـاب

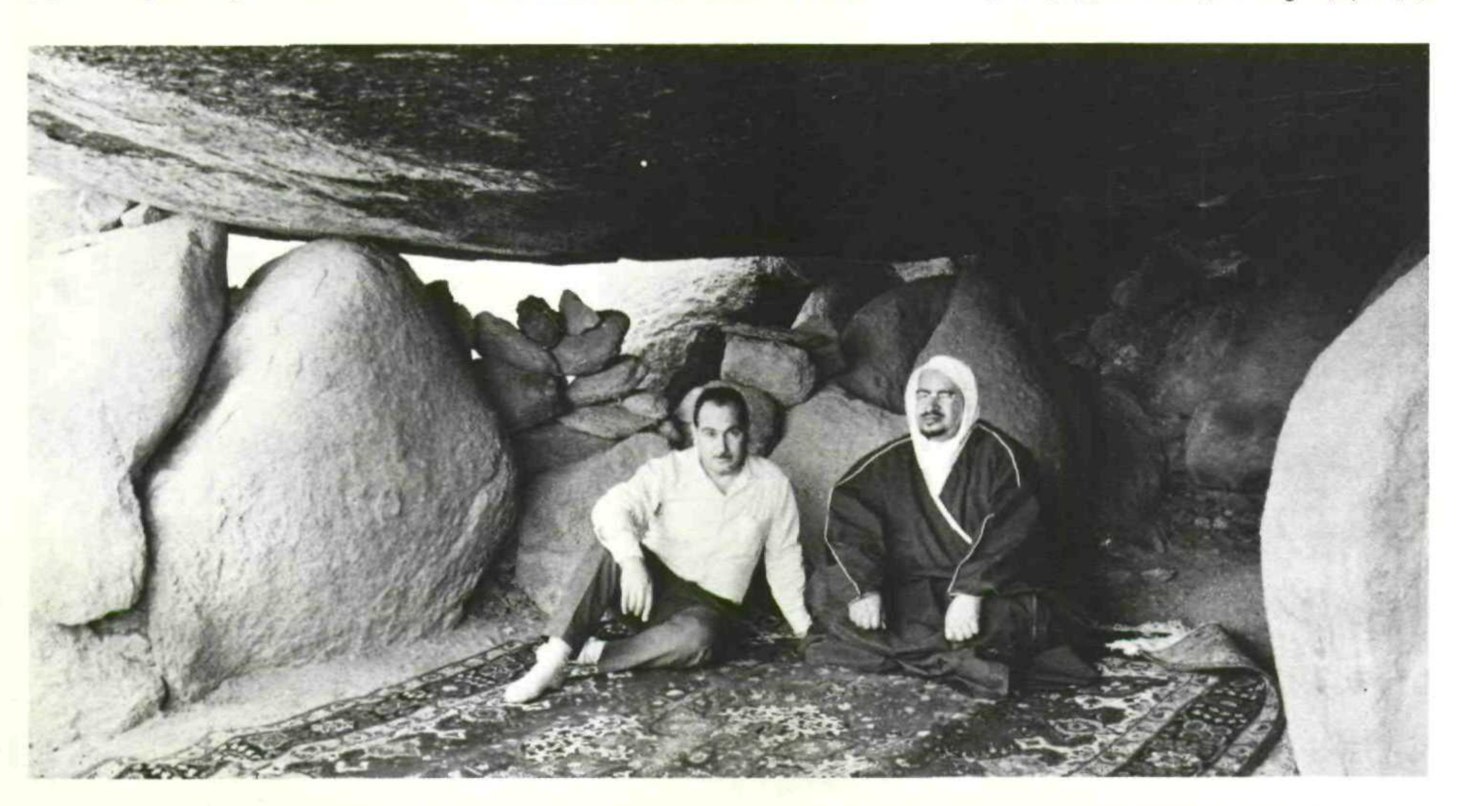
ومن العادات الجميلة التي يشارك فيها جميع أبناء حائل في أفراح العيد ، أن كل رب عائلة بعد صلاة العيد يحمل ما حضّرته زوجته من مأكولات وحلويات يضعها في ساحة عامة ، فيجد الفقير والغريب الوافد الى المدينة يوم العيد كل ما لذ وطاب من المأكولات الشهية .

ومن أشهر الأكلات الشعبية المشهورة عندهم « الثريد » وهو قرص من دقيق البرّ يمزج بالسمن البري والبصل ، والحنينة ، ويدخل فيها التمر ، والمندى ، والحميس .

ومن الرقصات التي يؤدونها في الأعياد وأفراح الزواج « السوقية » التي يقوم بها جماعة من الرجال يجلسون في صفين متقابلين يرددون أشعارا حماسية على قرع « الدمام » أي الطبل . هذا بالاضافة الى رقصة « العرضة » النجدية المشهورة .

وبذلك نغادر حائل ، عروس جبال شمر ، ذات الطبيعة الخلابة ، والماء القراح والهواء العليل ، والربى الخضراء ■

سليمان نصر الله – من هيئة التحرير



في منطقة حائل تكثر الكهوف التي يلجأ اليها أبناء المنطقة في رحلاتهم الخلوية ، وهذا كهف الحجاج بن يوسف الثقفي الذي دلف اليه وهو في طريقه الى مكة المكرمة حاجا ، ويرى هنا فضيلة الشيخ ناصر بن عبد الله بن الشيخ وكيل أمير منطقة حائل مع كاتب المقال .



أينما تذهب في قرى حائل تجد أشجار النخيل تشق عنان السماء
والأرض قد فرشت بالبساط الأخضر . راجع مقال: حائل، حاضرة بلاد شمر.
تصوير: علي محمد خليفة